Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
Vol. 30, Issue No. 02, 2023

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
المجلد الثلاثون، العدد 02، 2023م.

ذاكرة المكان وتجلياتها في روايات محمود شقير للأطفال

Memory of the Place and It's Manifestations in Children Literature by Mahmoud Shaqir

د. عزت ملا إبراهيمي
الأستاذة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، إيران
زهراء فاضلي
طالبة، الماجستر في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، إيران

Abstract

The place is an integral part of the identity as belonging to the land, and it has psychological, social and cultural dimensions. In light of these dimensions, it does not constitute an issue of geographical belonging, but rather goes beyond that to its attachment to human existence. The place is considered the location of the events and the sanctuary of the characters. The reader can understand the significance of the place only through its interaction with other narrative elements. The novel is built on the basis of successful narrative interactions in which events are evident, characters overlap, and time and space deal with them. The importance of the place in the fictional text is that it forms the background on which the characters move and the events take place. The space in the novel is broader and more comprehensive than the place, it is the sum of the places on which the narrative movement is based, represented in the storytelling process,

whether those that were directly depicted, or those that are realized necessarily and implicitly with every narrative movement. Places are manifested in Mahmoud Shuqair's novels in a unique style that includes the opposite duality between the open space and the closed space, as spatial interaction and its opposition become an aesthetic dimension of the dimensions of his literary text. The place in his literature bears its structural characteristics that constitute a literary and creative phenomenon in terms of its diversity and its relationship to human culture. These historical and political wars and revolutions aroused a fundamental feeling framed by fear in the writer's soul, so he wanted to recover and strengthen the lost place in the hearts of children. This struggle over place generated a trend that explores the historical, ideological and aesthetic identity of the place. Therefore, this study aspires, based on the descriptive-analytical approach, to study the artistic presence of the place in the novels "Anna and Jumana", "Words of Mary" and "Dreams of the Skinny Boy" by Mahmoud Shuqair. The results of the research indicate that the writer uses the place to express the submission of his people to the occupiers. In many of his novels, he employs the open space to express the effectiveness and continuity of life, and the closed place comes as a prison, restrictions and barriers, to embody the state of conflict between death and life and the call to rise up before brute power.

Keywords: Arabic Narratology, Place, Novels, Palestinian, children's literature, Mahmoud Shukair, documentary realism.

الملخص

المكان جزء لا يتجزأ من الهوية باعتباره انتماء للأرض، وله أبعاده النفسية والاجتماعية والثقافية. وهو في ظلّ هذه الأبعاد لا يكوّن قضية انتماء

جغرافيا، بل يتجاوز ذلك إلى تعلّقه بالوجود الإنساني. فيعتبر المكان موقع الأحداث وملاذ الشخصيات، فإن القارئ لا يستطيع فهم دلالة المكان إلا من خلال تفاعله مع العناصر السردية الأخرى. إذ يتم تأسيس الرواية على أساس تفاعلات سردية ناجحة تتجلى فيها الأحداث وتتداخل فيها الشخصيات، وتتعاطى معها الزمان والمكان. تمثل أهمية المكان في النص الروائي كونه يشكل الخلفية التي تتحرك عليها الشخصيات وتجري فيها الأحداث. فإنّ الفضاء في الرواية هو أوسع وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء كانت تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تدرك بالضرورة وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية. تتجلى الأماكن في روايات محمود شقير بأسلوب فريد ويشمل الثنائية الضدية بين المكان المفتوح والمكان المغلق، إذ أصبح تفاعل المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد نصه الأدبي. فالمكان في أدبه يحمل خصائصه البنيوية التي تشكّل ظاهرة أدبية وإبداعية من حيث تنوعّها وعلاقتها بالثقافة الإنسانية، وهذه تنبثق من إحساس الخوف من فقد المكان وكل ما يهدّده من طمس وتهويد وشتات، خاصة بعد الأحداث التاريخية التي مرّت بها فلسطين من نكبة ونكسة وحروب. هذه الحروب والثورات التاريخية والسياسية أثارت شعورا جوهريا يؤطره الخوف في نفس الكاتب، فصار يريد استعاظة المكان المفقود وتعزيزه في نفوس الأطفال. وولّد هذا الصراع على المكان اتجاها يستقصي هوية المكان التاريخية والعقائدية والجمالية. فلذا تطمح هذه الدراسة معتمدة على المنهج الوصفي- التحليلي، إلى دراسة الحضور الفني للمكان في روايات "أنا وجمانة"، " كلام مريم" و"أحلام الفتى النحيل" لمحمود شقير، وتشير نتائج البحث إلى أنّ الكاتب يوظّف المكان للتعبير عن رضوخ شعبه أمام المحتلين، ويوظّف في الكثير من رواياته المكان المفتوح للتعبير عن فاعلية الحياة واستمراريتها ويأتي المكان المغلق كالسجن، والقيود والحواجز،

لتجسيد حالة الصراع بين الموت والحياة والدعوة إلى النهوض أمام السلطة الغاشمة.

الكلمات المفتاحية: السردانية العربية، أدب الطفل، المكان المفتوح، المكان المغلق، المكان المجازي، محمود شقير.

1– المقدمة

ولقد لعب المكان دورا أساسيا في حياة الإنسان منذ القدم ولايزال يتجلى أثره في تشكيل وجدانه على نحو معين، ووصم حياته بسمات خاصة، تركت آثارها في تحركاته وسكناته، وأكثر ما تجلَّى هذا التأثير في الأدباء على مرّ العصور، بحكم أنهم يمتلكون المقدرة على إعادة إنتاجه، وإكسابه إمكانية التجدد والتواصل، فليس المكان مجرد بقعة جغرافية يحيا فيها الإنسان، ولكن المكان يعدّ من أهم العوامل التي يدخل معها الإنسان في علاقة نفسية عميقة، لا شك تؤثر في سلوكه وتتحكم في ردود أفعاله، وتعمل باستمرار على تحريك سُلَّم القيم لديه وترتيب أولوياته وتحديد أهدافه.

ولا يمكن بأية حال النظر إلى المكان كرقعة مكانية معزولة، فمثل هذه الأماكن لا وجود لها إلا على أوراق الخرائط، والوجود الفعلي للمكان لا يتحقق إلا من خلال التفاعل الإنساني معه، فإذا كان الوجود الفعلي للنص الأدبي لا يتحقق في المناهج الحديثة، إلا من خلال فعل القراءة بواسطة القارئ، فإنه يمكن القول إنّ الوجود الفعلي للمكان لا يتحقق إلا من خلال فعل الاستيطان بواسطة الإنسان، لذلك فإن كثيرا من مناطق العالم غير المسكونة أو المستوطنة، لا تعدو مجرد كونها بقاعا جغرافية، وكذلك يمكن القول نفسه عن المناطق الواقعة خارج نطاق الكرة الأرضية في الكواكب الأخرى التي ما فتئ الإنسان يحاول سبر أغوارها باحثا عن موطئ لقدميه فيها.

ويستحضر الأديب الفلسطيني، محمود شقير(1)، شخوصه وأحداث قصصه الطفلية مما يحيط به، فالمكان بجمالياته ودلالاته وإيحاءاته وايماءاته هو من

أهم العناصر التي تسهم إسهاما كبيرا في تشكيل العمل الإبداعي ونسجه وبنائه، ويصبح أحيانا عند المبدع هوية تاريخية ووطنية ونفسية واجتماعية وثقافية. والمكان بجمالياته ودلالاته هو «المسرح الحقيقي الذي تصاغ في مصهرته الصورة القصصية، وهو الموضع الذي يحوي في زواياه وتضاعيفه تشكيلات مكانية وفكرية» (1). والمكان الذي يسترعي انتباه الكاتب وينجذب نحوه خياله، كما يرى الفيلسوف الفرنسي باشلار «لا يبقى مجرد مكان ذي أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز، وننجذب نحوه لأنه يكشف الوجود في حدود تتسم بالحماية»(2).

فالرواية الفلسطينية إذن رواية مكان؛ لأن تاريخه وخياله وموضوعه ارتبط بالأرض/ المكان؛ حيث إن تدمير النواة الخفية "فلسطين" من قبل الاحتلال الصهيوني جعل المكان هاجسا في مخيلة الكاتب الفلسطيني، ولقد استطاع محمود شقير إعادة صياغة الأماكن وفق رؤية جديدة اتخذت صورا مثالية وإنسانية تجاوز بها المساحة الجغرافية المجردة للأماكن إلى كونها تشكيلا روحيّا ووجدانيّا يزخر بالحركة والحياة. وهذه الدراسة تطمح إلى تحليل البنية المكانية في روايات شقير، والبحث في دلالاتها بالوقوف على نماذجها ووظائفها الجمالية في خطابه الأدبي.

1–1. أسئلة البحث: والهدف وراء هذا المقال، هو الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي أهم التمظهرات الدلالية للرموز المكانية في روايات محمود شقير؟ ما هو دور التراث في بناء مكانية النص القصصي عند الكاتب؟

1–2. منهجية البحث: تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي- التحليلي للكشف عن أهم البنية المكانية وجمالياتها في روايات "أنا وجمانة" و"كلام مريم" و"أحلام الفتى النحيل" للأديب الفلسطيني محمود شقير.

1–3. خلفية البحث: كتبت عدّة دراسات عن محمود شقير وأعماله القصصية، إلّا أنّ موضوع "بنية المكان" في أدبه لم يحظ بدراسة الباحثين ولم يدخل إلى حيّز

التداول في هذه البحوث. ولكن تسعى هذه الدراسة إلى معرفة الوسائل الفنية التي اعتمد عليها محمود شقير في بنيته المكانية، مترافقا مع تحليل المحتوى واستنباط النتائج من خلال دراسة النماذج المستخرجة من نصوص قصصه. وأمّا إذا أردنا أن نأتي بدراسات تناولت أدب الكاتب محمود شقير فيمكننا أن نذكر:

– «الفن القصصي عند محمود شقير»، سامي عبدالله السرخي، رسالة ماجستير، جامعة القدس، ٢٠٠٧؛ تناول الباحث في هذه الدراسة تجربة محمود شقير القصصية منذ ستينات القرن العشرين حتى عام ٢٠٠٥، وتأثيره على ترسيخ القصة القصيرة جدا في الوسط العربي، وعالج الواقع الفلسطيني والقضايا الإنسانية والاجتماعية والوطنية وصراع الكاتب بين طبقات البرجوازية والفقيرة، ووضّح كيفية انتقال شقير من القصة السردية إلى كتابة القصة القصيرة جدا.

– «الطفل في أعمال محمود شقير القصصية»، زهور علي مُحَمَّد يوسف، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١٦؛ عنيت هذه الدراسة بالأبعاد الطفولية ومضامينها وأساليبها في قصص محمود شقير، وتطرّقت إلى الأبعاد النفسية والاجتماعية والوطنية والتربوية والسياسية. وبيّنت أن هذه الأبعاد كانت صدى لما يدور في كوامن الكاتب وهواجسه، وأظهرت الطفل ورؤيته الطفولية للأرض، والشهادة، والوطن، والاحتلال، والبيئة الاجتماعية. ورصدت الباحثة التشكيل الجمالي لحضور الطفل في أعمال محمود شقير القصصية، فأظهرت الجوانب الجمالية فيها منها: اللغة، والأسلوب، والصورة.

– «صورة المرأة في الرواية الفلسطينية روايتا "فرس العائلة" و"مديح لنساء العائلة" لمحمود شقير نموذجا»، آيات مأمون بوريني، رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، ٢٠١٧؛ كشفت الكاتب عن تعدّد صورة المرأة التي تتراوح بين الإيجابة والسلبية، تجسّدت فيها صورة الأم المناضلة التي تقدّم أبناءها في سبيل الدفاع عن الوطن، وظهر بشكل واضح تأثير التعليم والثقافة على وعيها النضالي، وتمثّلت صورة المرأة المتمردة التي تقف لتحقيق كرامتها، وتكدّ في سبيل تأمين قوت أبنائها.

– «الشكل والمضمون في رواية الفتيان، دراسة في قصص محمود شقير»، حسين عبيدالله العزازمة، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا، الأردن، ٢٠١٩؛ تطرق الباحث إلى ملامح البنية السردية، في روايات محمود شقير، وتحديد عناصر العمل السردي من حدث وشخصية وسرد وحوار ولغة وأسلوب وزمان ومكان.

– «المفارقة والسخرية في القصة القصيرة جدا (محمود شقير نموذجا)»، إيمان مُحَمَّد علي زيادة، رسالة ماجستير، جامعة فيلادلفيا، 2019؛ تناولت الدراسة عنصري المفارقة والسخرية في سبع مجموعات في القصة القصيرة جدا عند شقير، وتوصّلت إلى غلبة توظيف عنصر المفارقة على عنصر السخرية في تلك المجموعات، فالمفارقة في رأيها غالبا ما تكون ضربا من السخرية المكتومة، بينما السخرية يستخدمها من المحتل والسياسيين الذين يستغلون قضية فلسطين لمصالحهم الشخصية.

– «تجليات المقاومة في أدب الطفل الفلسطيني (أعمال محمود شقير نموذجا)»، عزت ملا إبراهيمي، وزهراء فاضلي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، باكستان، العدد ٢٧، ٢٠٢٠؛ يهدف هذا البحث إلى أهم تجليات المقاومة في أدب شقير ودعوته في مقاطع غير قليلة إلى الكفاح والمقاومة من أجل طرد العدو المحتل من أرضهم الأم واعتقاده الراسخ بالالتزام بمناهج المقاومة السلمية في هذا السبيل دون إراقة دم واحدة، كما أنّه يكثر من تلوين حبكه القصصي بألوان التكانف والمساواة بين الولد والبنت ويجسّد روح التآخي بين المسلمين والمسيحيين، ويبيّن لنا ضرورة الانسجام والتواشج لبناء وطن واحد مهما كانت قومياته ودياناته.

– «جمالية الخطاب الساخر وأساليبه في مجموعة "صورة شاكيرا" للقاصّ الفلسطيني المعاصر محمود شقير»، مُحَمَّد جواد بور عابد، وأحمد عادل ساكي، مجلة اللغة العربة وآدابها، العدد ١، سنة ٢٠٢٠؛ تطرّق الباحثان إلى دراسة أسلوبية لمجموعة "صورة شاكيرا" القصصية، وكشف مستويات الأسلوب الساخر وقيمته

الفنيّة في هذه المجموعة الأدبية وفهم الأساليب التي لجأ إليها شقير في بنيته القصصية.

– «بنية الشخصية في روايات محمود شقير روايات "أنا وجمانة" و"أحلام الفتى النحيل" نموذجا»، عزت ملا إبراهيمي وزهراء فاضلي، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، العدد التاسع والعشرون، سنة 2023؛ يهدف هذا البحث إلى تتبع أنواع الشخصيات في روايات شقير وقد وصل إلى أنّ الشخصية عند الكاتب ظهرت في قصصه حُرّة، قائدة، قادرة على القيادة وانتزاع حقوقها، فلذا تصوّر واقع الطفل الفلسطيني ومأساته.

2. دراسة أنواع المكان ودلالاته في روايات شقير

وتتعدّد أنواع المكان عند الكاتب المقدسي في رواياته الثلاث كما يأتي:

2–1. المكان المجازي: أو مكان مفترض، وهو بمثابة مكان تجري فيه الأحداث، ومكمّل لها مثل: الشجر الذي تعرّض لمهند عندما «بدا الشجرُ غامضا مثيرا للرهبة فلم يمنعني غموضُه من الغناء. غنّيتُ أغنية لعبد الحليم حافظ، ثمّ لفّني الصمت. تلفّتُّ حولي، تأمّلتُ الظلامَ الذي يحيطُ بي من كلّ الجهات، رأيتُ شَبحا يقتربُ منّي. هلْ هي فتأة على هيئة شجرة؟ أم شجرٌة من أشجار الحقل تأتي إليّ متنكّرة بملابسِ فتاة؟ بقيتُ مُتشكّكا في المشهد الذي أراه إلى أنْ سمعتُ صوتا هامسا: إذهبْ إلى أيّ مكانٍ تريد» (3).

وقد يكون هذا المكان وصفا لحالة تمرّ بها إحدى شخصيات الرواية كالخوف، الحزن، الفقر، الغنى و... وهذه الصفات تكون من النوع الذي ندركه شعوريا ولكنّنا لا نعيشه على سبيل المثال عندما رأت مريم «الجرّافات وهي تجتاح الأرض، تشقّ جسدها وتقطع ما يعترض طريقها من أشجار. اقشعرّ بدني وأنا أتابع المشهد المريع» (4). وفي هذا المشهد شعرت بخوف من المكان أدركته في غرارة نفسها وهذا هو المكان المفترض.

2–2. المكان الهندسي: يتجلّى بالمكان الذي يسيطر عليه اليأس والعجز والإحباط مثلا عندما قالت مريم: «سأكتب رسالة لعثمان. سأقول له: ليست القدس وحدها هي التي تعاني من أذى الأعداء، فالأرض هنا من حول رام الله تتعرّض للمصادرة وللاستيطان» (5).

2–3. المكان تجربة معيشة: يعدّ هذا النوع من المكان من أكثر الأمكنة تأثيرا على حياة الإنسان ويبقى محفورا في ذاكرته. ويشكّل ذاتيته، فهوية المكان هي هوية الذات. «والبيت أهم مكان في أدب شقير، لأن البيت يعمل على دمج أفكار الإنسان وذكرياته وأحلامه في الماضي والحاضر والمستقبل. ويمثل مكانا للإقامة والاستقرار وتلقي الأفكار السليمة والتربية الصحيحة» (6). فإذن صورة المكان ترتكز على مستقبلها من خلال حلم شقير وعلى ماضيها من خلال استرجاع الذاكرة وعلى حاضرها عند تجاوز المكان بإعادة تركيبه وانتاجه. وفي رواية "أنا وجمانة" عندما ركب جواد الحافلة مع البنت الإسرائيلية وتوقفت الحافلة عند قرية جميلة وادعة في عين كارم، ذهب جواد إلى بيت جده وقال: «مشيتُ بخطوات واسعة حينما ظهرَ لي بيتُ جدي، ومشت البنتُ بخطوات واسعة كذلك. اقتربتُ من البيت، واقتربت البنتُ من البيت. قالت بصوت مسموع للمرة الأولى:

«– إلى أين تذهبُ؟

أشرتُ إلى البيت:

– هذا بيتُ جدي، جئتُ لزيارته.

قالت البنت:

– هذا بيتنا، وأنا أسكنُ فيه مع أمي وأبي.

– إنه بيتُ جَدِّي» (7).

فالبيت من أهم خصائص بنيوية المكان لأنه محمّل بالذكريات والعواطف والانفعالات ومعبأ بالملامح التاريخية والاجتماعية والنفسيّة، لكنّ هذا البيت الذي

بناه جدّ جواد اغتصبه العدو الصهيوني. فبنية هذا المكان وإن حافظت في الحبك الروائي على أبعادها الواقعية التسجيلية وقوة تجسيدها لصورة المكان فإنها تكسب دلالتها في السرد من خلال توحيد أبعاد المكان ونسج علاقاته الاجتماعية والتاريخية والدينية والثقافية، ويأتي محمّلا بأبعاد الوجود الإنساني وهذا أشبه ما يكون بالتأملات الوجدانية في المكان، ومذكرات جماعية تؤرخ الشتات والبعد، وتدوّن بدايات الرحيل الفردي والجماعي، وتعيد ذاكرة الحنين للمكان الأليف، أو تحدث ثورة على الواقع الاجتماعي والسياسي، وتثير حركة عامة لرفض المنفى. على سبيل المثال في رواية "كلام مريم" قالت مريم لكنعان: «قريتي اسمها يالو. ذهبتُ إليها أنا وأهلي. كنّا مثل السيّاح! وقفنا في المكان الذي كانت تنهض فوقه البيوت والطوابين وحظائر الأغنام. أخرج أبي من جيبه الصورة التي رأيتها كثيرا بين يديه ونحن في عمّان. صورة بيتنا الذي بناه جدّي. يظهر البيت وسط أشجار التين والزيتون والعنب والمشمش والدرّاق. بيت له باب من حديد، وله شبابيك مستطيلة وحيطان من حجر مصقول. تأمّلت الصورة، ثم حدّقت في المكان الذي أقف فيه. الآن، لم يعد البيتُ موجودا» (8).

فالعالم البيتي الذي تتجه نحوه التأملات المتعلّقة بالحنين لبيت الطفولة عالم مفتوح على شتى أنواع القيم والأنساق، وهاجس فقد المكان في اللاوعي الفردي والجماعي، من حيث أن تأملات الألفة والعزلة تمتّ بصلة أو بأخرى إلى فقد قيم الحماية في الواقع وعلاقة ذلك بفقد الوطن، وهذا يجسّد الفاجعة الإنسانية التي ارتبطت بذاكرة الأديب الفلسطيني بصورة فقد الوطن والبيت، قالت مريم: «عدتُ إلى البيت. بيتنا الحبيب الذي قد يتعرّض للهدم ذات صباح أو ذات مساء» (9).

ترتبط البنية المكانية في أدب محمود شقير بواقعها الخارجي وما تحمله من صراعات بين الأنا والآخر، لذلك فإنّ الجدل الذي ينشأ في هذا الواقع التسجيلي ينبع من وعي الكاتب وثقافته باعتبارهما بنى فوقية تعكس لنا واقع الصراع القائم

مع العدو على المكان. والجدير بالتأمل أن البنية المكانية ترتكز على استعادة المكان المفقود وشكل خطابها على إيحاءات تنتج فضاءات المكان والأرض، ومن ثم جعل الحنين للمكان سببا لاسترجاعه على مستوى النص «والحنين أم تبثّ فيه الذاكرة متعة التذكّر، أو ترسم للعالم المفقود صورة متخيلة هي المرجعي المستعاد»(10).

2–4. المكان المعادي: تتمحور حوله الأماكن الآتية: السجن، الغربة، المنفى، وما شابه ذلك، «وهو المكان الذي يقف للإنسان بالمرصاد لمواجهة إنسانية، فشبّهه بالمجتمع الأبوي نقيض الأمومي لدلالته على السلطة والتحكّم» (11). وقد ارتبطت صورة السجن في ذاكرة شقير الذي ذاق مرارته، نلمح هذه الصورة في رواية "أنا وجمانة" حينما قالت جمانة: «سوف ألتحق بالمقاومة، وبعد ذلك يُلقي الأعداءُ القبضَ عليّ، يقتادونني إلى السجن، يُعرضونني لأبشع أنواع التعذيب» (12). وفي هذه العبارة أيضا تأكيد على حضور البنت في ساحة المقاومة لحفظ المكان/الوطن.

2–4–1. القرية: والعلاقة التي تربط الأديب محمود شقير بالمكان هي علاقة إنسانية ووجدانية، أولى لها اهتماما بالغا في أدبه الإنساني، فشقُّير كاتب إنساني رغم معاناة الشعب الذي ينتمي إليه، والإنسان عندما يعاني يغدو أكثر إنسانية وإحساسا بآلام الإنسان بشكل عام. لاسيما في ظلّ الحروب والمأساة التي عاشها ويعايشها الشعب الفلسطيني منذ عشرات السنين ولذلك فإن القرية الفلسطينية احتلّت مكانة بارزة في أدبه وهي قرية موصوفة دون أن يبوح بإسمها، وشقير لا يسمّي القرية بإسمها؛ وإن كان يقصد قريته التي ولد فيها واحتفظ بذكرياتها عندما كان يذهب مع أبيه أو القرى التي درس فيها. لنا في ذلك عدة أمثلة من قصصه الإبداعية ورواياته للأطفال. وكما ذكرنا آنفا بأن محمود شقير ولد في قرية "السواحرة" بجبل المكبر جوار مدينة القدس، ونشأ وترعرع في ظلّ حياة بدوية تعتمد على الرعي وتربية المواشي وزراعة المحاصيل الشتوية كالقمح والشعير، تشرّب

من عادات بلدته وتقاليدها التي تشابه تقاليد بعض القرى الفلسطينية. وسكّان هذه البلدة كانوا فلاحين. وصورة هذه القرية، بأهلها وبيوتها وشوارعها وأزقّتها، نموذج لحياة الفلاحين في فلسطين. والصور الواقعية التي يسجّلها الأديب في رواياته، لها مواصفات اجتماعية ونفسية. وبعد أن أكمل شقير دراسته في مدرسة الرشيدية في القدس أي المدينة التي تختلف عن القرية في ميلها إلى تعليم أبنائها والتأثر بالمستجدات السياسية في فلسطين.

للمكان أهمية قصوى في حياة الإنسان، تتجسّد في شخصيته ووجدانه إلى آخر يوم في حياته. ومهما يمرّ الزمان يبقى هذا المكان وشما في الذاكرة، وكل بقعة وشجرة ونبتة وحقل له حكاياته وذكرياته المتعلقة بمرحلة من مراحل حياته. فالارتباط العاطفي أحد أهم ركائز المؤثرات النفسية، وله علاقة وثيقة بحدث معين في مكان محدّد. ومن الأسباب التي جعلت هذا الارتباط ينمو ويترسّخ في وجود الإنسان الفلسطيني هو هذا الصراع القائم حول المكان، بحيث تحوّل إلى خوف ورهبة من فقد المكان والوجود الإنساني والهوية. ففقدان المكان في أدب شقير، هو فقدان للذات والحياة والكرامة، وعامل تشرّد وانزياح وهوان. لقد واجه أهل هذه البلدة الخطر الذي يهدّدهم منذ عشرات السنين، ورأى الأطفال بأم أعينهم كيف أن الأرض والبيت الذي بناه أجدادهم يسحب من تحت أقدامهم. فبدأت هذه الصورة تتجلّى أكثر في ظل الحروب التي خاضتها فلسطين وما تلاها من تغريب وشتات للشعب الفلسطيني. ولقد شهد شقير النكبة عام ١٩٤٨ وهو لم يتجاوز الثامنة من سنّه. فذاق مرارة التشرد وطعم الخوف والرهبة منذ نعومة أظفاره. فسجّل ذلك في رواياته وقصصه القصيرة جدا. وظلّ هاجس الخوف والقلق يرافقه في بعض كتاباته، فلجأ لأسلوب واقعي تمتزج به الرومانسية، التي كثيرا ما ارتبطت بالريف والقرية فأخذ مادته من الواقع القروي في عقدي الخمسينات والستينات. وصور الواقع بشكل تسجيلي وثائقي، وهذه الصور

ليست بعيدة عن الواقع المحيط بالكاتب، إنّما هي حصيلة تجربة فعلية ذاتية وعامّة. مرّ بها شعب بأكمله في رحلة التشرّد والتغريب الطويلة. تقول مريم:

«كنت طفلة يومَ هاجمت الدبّابات قريتنا.

قالت: – نزحنا إلى رام الله، ثم لحقت بنا الدبّابات.

وقالت: – اتّجهنا شرقا وقطعنا الجسر إلى عمّان.

قال أبي وهو يتذكّر تلك الأيّام:

– أنا أيضا كنتُ طفلا. هدموا بيتنا، هدموا قريتنا. جعلوها كومة من حجارة وحديد (13).

وهكذا تحدّث شقير عن الجو القروي بألم شديد، فرأينا الطفلة مريم تجرّعت طعم الانزياح، وهُدِّم بيتها وهدّمت قريتها بعد أن هاجمها العدو بالدبابات. مما يعني أن الطفل خارج إطار بيته يفقد الأمن والامان ويتعرّض للذلّ والهوان، أما الطفل الذي يجب أن يفرح ويمرح في ساحة البيت فإنّه يفقد المكان الذي يشعر فيه بألفة وأمان، فتجد الطفلة شعور الألفة بما تبقّى من هذا البيت المهدم من شجرة ونبتة، فتقول: «اقتربتُ من شجرة صبّار، هي وبضع شجرات أخريات، كلّ ما تبقّى من قريتنا. شعرت بألفة نحوها وهي متلفّعةٌ بالصمت»(14).

للمكان في روايات شقير نكهته الفلسطينية الخاصة، يمتزج فيه الماضي والحاضر بما فيهما من حنين وألم. عين تنظر إلى الماضي وأخرى إلى المستقبل فتفيض عاطفته الجيّاشة ما بين حسرة ورجاء ورهبة وأمل، إنها مشاعر متناقضة لإنسان مرّ بهذه التجربة منذ النكبة والنكسة، فكنعان «عندما حدّثها عن القرية التي هدمها الأعداء بعد حرب 1967» (15). صوّر لنا تشرّد الشعب الفلسطيني، وحلول حرب حزيران عام ١٩٦٧، ولكن ما لبثت العائلة أن حظيت بالعودة، ورغم قصر المدة فقد ثار شوق الطفل كنعان وعائلته للبيت والقرية التي ولد فيها، تقول مريم: «قريتي اسمها يالو. ذهبتُ إليها أنا وأهلي. كنّا مثل السيّاح! وقفنا في

المكان الذي كانت تنهض فوقه البيوت والطوابين وحظائر الأغنام. أخرج أبي من جيبه الصورة التي رأيتها كثيرا بين يديه ونحن في عمّان. صورة بيتنا الذي بناه جدّي. يظهر البيت وسط أشجار التين والزيتون والعنب والمشمش والدرّاق. بيت له باب من حديد، وله شبابيك مستطيلة وحيطان من حجر مصقول»(16). وهنا تصوير شقير للقرية والبيت أشبه بالتصوير التوثيقي التسجيلي في دقّته، يوثّق المكان بكل معالمه من الخارج والداخل: البيوت، الطوابين، وحظائر الأغنام، والأشجار، والشبابيك، والحيطان. يعود إلى أيام زمان، إلى أيام طفولتها بنعيمها وبراءتها. يصوّر بيتها المكان الأعز على قلبها وقد بناه جدها للعائلة كي يقيها من الخطر المحدّق بها. كان في ظلّ هذا البيت أب وأم، أخوة وأخوات، يتلاحمون وقت الشدّة، ويصور لنا أجواء مسقط رأسه الذي احتضنه طفلا صغيرا ثم فتى في مقتبل العمر. فالقرية، نموذج حيّ لحياة الفلسطيني قبل النكسة وبعدها. واللافت للنظر أن هذا الحنين للقرية في روايات شقير لا ينحصر في الأطفال الذين مرّوا بتجربة التشرد، وذاقوا طعم الغزو والبعد عن الوطن، بل يتجلّى في حنين الطفل للقرية بعد عودته من المدينة: «أتجوّلُ في المدينة مثلما أشاء ثم أعودُ إلى بيتي في القرية. أنا الآن ابنُ السهل والجبل والأشجار، وأنا ابنُ الشارع الطويل والسوق المسقوفة ذات الأدراج» (17).

واللافت مرة أخرى هو انبثاق صوتين متداخلين صوت الطفل الصغير مهند، وصوت الأديب الواعي محمود، فنرى صورة الطفل وهو يندفع نحو السهول والجبال والأشجار كاندفاعه لأمّه، ونرى السارد الواعي وهو يرى هذه الصورة تتحرك فيه كل مشاعر الإنسان الجياشة للقرية، وكل ما في هذه الصورة الإبداعيه ليس مجرد لوحة جافّة بل يكاد المتلقي أن يراه رؤية العين والقلب معا.

وقلنا إن محمود شقير مرّ بتجربه التشرد حينما كان طفلا، فذاق طعمها وأصيب بالرعب، بحيث ما انفكت عوده الذكريات عنه. وكان على يقين تامّ بالعودة إلى الوطن، وإلى أماكن الطفولة والصبا: «في شهر تموز 1948 بعد

احتلال الجزء الأكبر من فلسطين جربت أول أيام ابتعاد قسري عن البيت الذي لم يخطر ببالي من قبل أنني سأبتعد عنه كنت آنذاك في السابعة من العمر وكان ثمة عدوان مسلح على قرية جبل المكبر، ولم نعد أنا وأهلي إلى بيتنا إلّا بعد أشهر حين أعلنت الهدنة وتم ترسيم الحدود وتأسست للمحتلين الإسرائيليين دولة وأصبحت قريتنا واحدة من قرى الحدود» (18).

لذلك ليس غريبا عليه أن يرى ما مرّ به الأطفال وهم يتذوقون طعم الغربة والشتات، وهذه التجربة التي مرّ بها شقير ظلّت جزءا من ذاكرة غنية، أنّها تجربة مؤلمة ومخيفة، لاسيما لطفل صغير. فلهذا ظلت تمور وتفور بين الفينة والآخر، وهذا الأمر قذف الرعب والحذر في قلب السارد مغبة ما قد يحصل في المستقبل إذا حدثت هذه التجربة مرة أخرى. فالبعد عن المكان يفقد الطفل شعوره بالأمان، ويخلق لديه حالة من القلق من فقدان الأهل والأحبّة والبيت الذي ولد فيه. ما يجمع بين الغربتين يتمثل في اللهفة إلى البيت وإلى أجواء الأمن والأمان والشعور بالخوف والحسرة والألم.

ونلاحظ في عدة نصوص استخدم الكاتب ضمير المتكلم، لأنه ينقل نفس الحالة المأساوية التي عاشها في ظلّ الإحتلال. فتجربته الذاتية وتجربة غيره من أطفال شعبه هي نفس التجربة؛ نفس الألم والمأساة وهي رسالة يبثّها المرسل للمتلقّي، وهي التأكيد على حق عودة الأطفال الفلسطينيين الذين شرّدهم الغزو الصهيوني من قراهم، وعاشوا سنوات طويلة في المنفى، وكي يعودوا إلى أماكن الطفولة وإلى بيوت أجدادهم وقريتهم التي إحتلها الغزاة وسكنوها؛ أو أن يتأسوا على بيوت كانت لهم، فأخرجوا منها ظلما؛ ثم طالها النسف والتدمير والخراب.

لمقاربة هذه العودة وتجديد الحلم الذي لم يغادر مخيلات الأطفال الفلسطينيين في مختلف الأحيان رسم لنا شقير قصة جواد في رواية "أنا وجمانة"، حينما نزل إلى قريه عين كارم نزلت البنت الإسرائيلييه معه فسألته: إلى أين أنت ذاهب؟ فيقول لها إلى بيت جدي، فتقول له: هذا بيتنا وأنا أدعوك للدخول إلى بيتنا والبقاء فيه

خمس عشرة دقيقه، فيؤكد لها من جديد أن هذا البيت بناه جدّه ثم طرده اليهود منه، واستولوا عليه، ومع ذلك يظهر رغبه في دخول البيت للتعرف عليه ولو لفتره قصيره، فيقول لها: إنّ صلاح الدين معه، ثم تخاف البنت تغلق الباب. يشعر جواد بالحزن ويقول لصلاح الدين لن أعود إلى بيت جدي مره أخرى، يختفي صلاح الدين، فيشعر جواد بأنّه أغضبه، ويتساءل عن سبب اختفائه فجأه يزوره صلاح الدين ويقول له: لست غاضبا منك إنما لا تقل لي مره أخرى إنك لن تعود إلى بيت جدك.

بعد معايتنا لصورة المكان في أدب محمود شقير للأطفال نرى أن معظم مركباته تتجلى أمامنا بوضوح، لتتجاوز واقعها الخارجي مقتحمة العاطفة والوجدان، فتصبح دليل انتماء كما تنعكس في النقاط التالية:

الإطار: تتجسّد صورة القرية الفلسطينية بواقعية ووضوح بما يتكيّف مع شكلها التراثي المألوف، ونمط حياتها، حيث "حظائر الأغنام" و"الطوابين" و"الشبابيك" و"الحيطان" و"الحقول المحاطة بالجدران الحجرية" و"السهول الفسيحة والممتدة" و"الجبال العالية".

النباتات والأشجار: ترد أسماء أشجار فلسطين ونباتاتها الشهيرة كجزء من المكان مثل: "شجرة السرو" و"شجرة الزيتون"، و"شجرة اللوز" و"شجر العنب"، "شجرة المشمش"، و"شجرة الصّبار".

وترد أسماء النباتات مع مواصفاتها: "زهرة قرن الغزال"، وهي زهرة لها لون أبيض أرجواني.. و"زهرة النرجس" وهي زهرة تعرف من الأصفر الدائري الذي تحيط به أوراق بيضاء، و"نبتة القبّارة" وهي نبتة ذات أشواك ولها عروق كثيرة متشابكة وورق أخضر غامق وشوك حاد.

المأكل والمشرب: ترد أسماء المأكولات التقليدية مثل: "الشاورما"، و"الكنافة المقدسية"، و"حلويات القدس"، و"الملوخية"، و"الدجاج البلدي ولحم الخراف"، و"المرق"، و"السردين"، و"التونا"، و"الجعدة"، و"الميرميّة"، و"البابونج".

حريّ بالذكر أن هذه المأكولات والمشروبات لها علاقة بالوضع الاجتماعي والانتماء الطبقي للفرد. وتقدّم لنا صورة واقعية تسجيلية عن بعض المأكولات والمشروبات في فلسطين.

العادات والتقاليد: وهي عادات وتقاليد كانت سائدة في تلك الأيام، ومازال بعضها ساريا حتى يومنا هذا، مثل: الحكايات والأغاني التي كانت تترنّم بها الجدّات والأمهات للأحفاد. تقول: «وتذكّرت جدّتي التي ظلّت تخدعني حينما أسألها:

– من أين جئت أنا؟

تقول:

– وجدناك تحت الشبّاك» (19).

وكذلك التقاليد السائدة في المجتمع القروي، مثل حرمان البنت من اللعب مع الأولاد حينما تبلغ الثالثة عشر من عمرها: «مَنْ قال إنه مسموحٌ للبنت أن تلعبَ مع الأولاد؟

أقولُ له:

– ما الخطأُ في ذلك؟

يقولُ لي:

– كلُّ الخطأ. خصوصا حينما تصبحُ البنت في الثالثة عشرة» (20).

وكذلك عدم السماح للبنت الالتحاق بالفرقة المسرحية يعتقد أخو مريم أن «البنات اللواتي يشاركن في التمثيل لا يحترمهنّ الناس» (21)، ومنع البنت من إكمال دراستها. ولكن ما يجدر ذكره أنّ في معظم القرى الفلسطينية بات يجري التعامل مع هذه الأمور بصورة مغايرة اليوم؛ فلم تعد تمنع البنت من الانضمام

للمسرح ومواصلة دراستها، وهذا ما أشار إليه شقير وهو يبيّن التحوّل الذي طرأ على أفكار القرية تجاه عودة البنت إلى المدرسة، قالتْ: «إنّها ستلتحقُ بمدرسة خاصّة في المدينة، بعدَ أنْ اقتنعَ أهلها بأنّهم أخطأوا حينما أخرجوها من المدرسة»(22).

وهكذا رسم شقير صورة واقعية ذات طابع قروي، تكشف لنا تلك العلاقات المتنامية بين القرية والمدينة. التي نمت وأسهمت في انفتاح البيئة القروية. وفي ضوء ذلك تبدو التغيرات الواقعية ناجمة عن الحاجة وتغيّر أفكار الناس القرويين، ولكنّها لم تمر دون صعوبات وعراقيل. وأهمية أدب شقير أنه نجح في التقاط صور واقعية تسجيلية لهذا المجتمع المتحوّل. ورسم لنا لوحة تبرز تحولات البيئة القروية لمجاورتها مع المدينة.

يجذّر شقير المكان ويؤصّله بتوظيف ما في هذا المكان من موروث شعبي، فيجعل الشخصيات ملتصقة به، وفية له، محافظة على ثقافته الشعبية التي تمثّل اللاوعي الجمعي، هذا يدلّ على أن الكاتب مهتمّ بالمحافظة على الموروثات القديمة الغائرة في أعماق الزمان ليواجه بها محاولات العدو الدائمة لمحو الهوية الفلسطينية وسرقة الموروث الفلسطيني وإدعائه له. توظيف الموروث الشعبي، كالحكايات، والأساطير، والأغاني، والألغاز، والشعر، والأمثال. وهو من أهم عناصر الحفاظ على الهويّة الفلسطينية وتأكيد الذاكرة الجمعية عند شقير. لأن المحتل أو العدو الصهيوني حاول طمس وتهويد المكان. لذا نراه يهتمّ بإيصال هذا الموروث إلى الأجيال القادمة جيل بعد جيل ليكون سلاحا من أسلحة مقاومة المحتل، والحفاظ على الذات، فنراه يوظّف أغنية شعبية، ويجعل مريم تتخيّل أنها أمّ تهدهد بنتها المتخيّلة "صبا" فتقول لها:

«نني نني

عصفور في الجنّة

صبا بدها تنام

لاذبح لها طير الحمام» (23).

وشقير هنا لا يتحدّث عن أمّ توظّف الموروث الشعب الفلسطيني وتخاطب ابنتها، وإنّما يتحدّث عن مريم التي ستكون أمّا وتحمل هذا الموروث، وتنقله إلى ابنتها ولجيل قادم (مرتقب). فهي أخذته عن أمّها وتورّثه إلى بنتها المتخيّلة "صبا"، وهذا يدلّ على استمرارية الحفاظ على هذا الموروث وأهميته. إذ أن الحكايات والأغاني الشعبية تتمتّع بشمولية أكثر من الحدوثة، وتقدّم لنا صورا اجتماعية مرتبطة بمحاكاة الواقع. ثم تقول مريم: «ارتعش بدني، قلت: لماذا الذبح؟ ما ذنبُ طير الحمام إذا كانت طفلتي لا تنام؟ ثم ارتاح بالي حينما تذكّرت أنّ الأغنية لم تكتمل بعد:

لا تصدّق يا طير الحمام

بضحك على صبا حتى تنام» (24).

ارتعش بدن الطفلة من ذبح حمامة لأنّها لشدة ما رأت من شباب وأطفال يذبحون في فلسطين لذلك وغرت هذه الكلمة في ذاكرة الطفلة، وبالتالي نفرت عن مصطلح ذبح الحمامة. فضلا عن أن الطفل الفلسطيني يبحث عن الحياة وليس الموت.

ترد هذه التوظيفات بكثافة في قصص محمود شقير لتساهم في خلق جو ريفي، وهكذا تتجلّى ملامح المكان في أدبه، إنّها ليست ملامح خارجية لمساحات ومواقع جغرافية بل هي عاطفة وألفة. وتصوير شقير للمكان ليس تصويرا خارجيا فحسب، بل هو تصوير يدخل في لبّ المشاعر والأحاسيس متكئا في ذلك على الواقع القروي المعيش آنذاك. يلتقط منه صورا لأمور مجردة كما هي على واقعها، وعلى الخيال والحلم الذي يغذّي طموحات السارد وآماله في تحقيق الأفضل، ويتعدّى البعد العاطفي والوجداني لتتجذّر عملية انتماء الطفل للمكان.

في هذا السياق نشير إلى مدى التحام محمود شقير بالطبيعة الفلاحيّة بكل أبعادها ومركباتها في القرية والسهول والجبال والأشجار والنباتات والحقول. فقد جعلها جزءا من كيانه تفرح لفرحه وتحزن لحزنه وتصمد لصموده، وتحنّ إليه كحنين الأم لإبنها ، يحدث كل ذلك بواقعية دون أن يتخلّص من الرومانسية، لأنّها مسيرة ذاتية خبرها وعاش الكاتب في خضم حوادثها التي حيكت على أرض الواقع القروي. فتقترب من النسيج الاجتماعي والإنسان الفلسطيني لتسجّل منه صورا توثيقية.

2–4–2. المدينة: لا تختلف صورة المدينة في قصص شقير عن صورة القرية في ألفتها وطيبتها وتآخيها ومصطلحاتها. ولاحظنا أن لغة القاصّ مقترنة بالأرض، وهي تساهم في رسم المكان وأهالي المكان في مواقعهم المختلفة. ووجدنا أن هذه المفردات والتعبيرات ذات دلالات اجتماعيه وسياسية. تدلل على سلسلة التحولات في المكان في ساحة الأرض والطبيعة، وما تحتويه من دلالات وإيحاءات ورموز، ونسيج البنية المكانية يمتدّ إلى الجغرافيا السياسية والاجتماعية والعلاقات الإنسانية، وهذا يؤكد انتماء الإنسان لوطنه وأرضه وقريته كما ترسم صورا توثيقية تسجّل الرحيل وأماكن الغربة والمنفى وتؤرخ لمعاناة الرحيل عن الوطن.

من هنا يتجلى حضور أسماء المدن حضورا غير محايد في السرد الروائي، بل إنه نوع من استرجاع الأمكنة في علاقاتها بتجارب مختلفة، فاتخذ من المكان سبيلا لتثقيف الطفل وبناء وعيه وتنمية مواقفه الإيجابية وقيمه التربوية والسلوكية والوطنية والاجتماعيه ومواجهة المواقف الخاطئة. وبذلك يتحوّل النص المكاني إلى نص يتنفّس أجواء المنفى، ويسعى إلى استعادة المكان الأليف وإعادة خلقه عبر الخيال والصورة. فيظهر ذلك في روايه "أنا وجمانة" حيث يقول: «وأتذكر ما قاله أبي عن المدينة ونحن في المنفى، قال إنها من أجمل مصايف البلاد، وأهلها يتصفون بطيبة متناهية، وقال: كنت أنا وبعض أصدقائي نكثر من المشي في شوارعها في ساعات المساء» (25).

حضور المكان ليس مجرد ذكر إسم أو حالة، وإنّما يحاكي تسلسل مسار الزمن وأمكنة الرحلة، والغربة، وذكريات المنفى والشتات واستعادة مكان الألفة. وضمن هذا الاتجاه فإنّ حقول المكان المتعلّق بالمساحات الجغرافية كأسماء المدن أو القرى، إنّما يحقّق حضوره في السرد في أنساق لها خصائصها وأبعادها، ومهما كانت هذه التجربة ذاتية فإنّها تستعيد ذاكرة المكان على أساس قيم جمالية تحكم على النص وانتاج المكان ضمن حبكة الراوي.

وهكذا يواجهنا السرد الروائي للطفل الفلسطيني بحقل من اللغة المكانية، يدمج في تفاصيلها تجاربه الذاتية، والقيم الإنسانية المعبأه بالألم والغربة، تعيد المكان بين ذاكرة عامة وخاصة، ويحاول أن يزاوج بين المكان الغريب عبر ذاكرة الأليف. وهذا يدلّ على وعيه الذاتي بالنسبة للمكان وخصائصه وتفاصيله، «الأمر الذي يفرض تحديد وعي الشاعر وفق ما يحيط به من أمكنة متعددة الوظائف والأحجام من خلال المعاينة الذاتية أو التجربة الجماعية وبالتالي الشعورية مما يشكل معه ذلك المكان بمختلف التشكيلات» (26). وهذه التشكيلات اللغوية لبنية المدينة لا تنحصر على التجارب الاجتماعية والسياسية ولا هي مجرد استجابه لمتغيرات النص وخدمة الموضوع وإن كان ارتباطها بالأرض واضحا في أدب الطفل الفلسطيني بل أنها تتعمق في تفاصيل الواقع اليومي وفق أنساق تاريخية وثقافية وإنسانية، إذ تتحوّل معاناة فقد المكان والمنفى والشتات واستعادة ذاكرة المكان إلى تجارب جمالية وعوالم متخيلة لها فضاءاتها الدلالية.

2-4-3. المنفى: وله أثر بارز في أدب الطفل الفلسطيني، بحيث أن طبوغرافيا الرحيل امتزجت فيها مشاعر النفي والغربة بذاكرة الأمكنة التي ينتمي لها الأطفال، كما ساهمت فلسطين بانتاج موضوع تخييلي يتماهى بأمكنة الرحلة والنفي عن الوطن. «وثمة أولا تلك الواقعة الواضحة المتمثلة بفلسطين كمنطقة جغرافية مهمة جدا أو مهمة لأبعد الحدود، كما يقول بعضهم، فلسطين بوصفها موضوعا

للإسقاط التخيّلي والإيديولوجي والثقافي والديني كانت متماهية على الدوام بحزن جزئي وبحزم جزئي مع الطرد والنفي» (27).

مثل هذه الواقعة اختارها شقير لتكون صورة توثيقية للمكان، فالتنقّل شبه الدائم بين البلدان والمدن خلق في نفوس الأطفال شعورا بعدم الاستقرار كان له أثره في انتاج الطفل وارتبط بصور الوجود الإنساني في هذا المكان وارتباطه بالوطن. من ذلك: عندما طلبت أم جمانة من ابنتها أن تنتقل لغرفة أخرى، بدت جمانة غير راضية عن قرار أمّها لأنّها سئمت التنقّل هي وأخوها جواد، فقال جواد في نفسه: «مَللتُ التنقلَ من بيت إلى آخر، ومن غرفة إلى أخرى طوال السنوات الفائتة، أبي هو السبب في هذا التنقل المرهق، طُردَ من الوطن قبل أن أولد، طردته السلطاتُ الإسرائيلية المحتلة بسبب مواقفه الوطنية، عرفتُ هذا فيما بعد، وكانت النتيجةُ حرماني من فرصة الولادة في الوطن» (28). ثمَّ أضاف الكاتب: «وحينما وُلدتُ في المنفى، لم أظفر بمكان واحد أستقرُّ فيه. تَنقَّلَ أبي من بلد إلى آخر، وكنت مضطرا للتنقل معه، أرحلُ إلى حيثُ يرحل، وأقيم حيث يقيم، احتملتُ التنقل والرحيل وملَلْتُه في الوقت نفسه. وشعرتُ بارتياح حينما عدت مع أبي وأمي وأختي إلى الوطن، قال أبي وهو يُعَبِّرُ عن ارتياحه أيضا: لن نرتحل مرة أخرى. والآن تفرضُ أمي على جمانة أن ترحل من الغرفة» (29).

من الطبيعي أن يتحكّم إحساس الغربة في ذاكرة جواد من حيث الاثر النفسي الذي يخلّفه المنفى على ذات الطفل، إذ إن هذه الأماكن الهامشية التي تنقّل إليها عندما طرد من الوطن، لها صلة بالتجربة التي مرّ بها الطفل في المنفى. وهو ما يفسّر حضور المدن والأماكن التي تخصب الحبك الروائي بمناخات التجربة، «وللأماكن الهامشية دورها وتأثيرها وفقا لطبيعة حياته في منفاه شبه الدائم، منها الأرصفة والأسوار والأضرحة والشرفات، وأي مكان هامشي آخر ليس للعيش الحقيقي بل لشبه حياة» (30). والطفل كنعان عندما ولد في المنفى "عمان" بعد أن هدّم الأعداء قريته بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وعاد إلى الوطن

قال لمريم: «كنتُ أذهبُ في فصل الشتاء مع أهلي إلى مدينة العقبة في الجنوب، وأثناء ذهابنا إلى هناك، كنّا نقضي بعضَ الوقت في البتراء. أحببتُ البتراء لما فيها من فنٍّ معماريّ مدهش. هل تتصوّرين يا مريم؟ مدينة منحوتة في الصخور معلّقة بين الجبال! كنّا نذهب في الربيع إلى عجلون في الشمال. كم أحببت جبالها لما فيها من طبيعة خلاّبة وأعشاب وزهور وأشجار!» (31).

صورة المنفى في تجلياتها وتحوّلاتها مزيج من الأمكنة التي لا يمكن أن تحد وتنحصر، بحيث غدا المنفى إطارا عاما للأمكنة من حيث الأبعاد النفسيّة والغربوية التي تخلدها في نفوس الأطفال. لكن حينما نتأمل تفاصيل مكان المنفى نجده يتوزع على هيئة مكانية لصخور معلقة ومنحوتة بين الجبال. وأمكنته الهامشية كصورة الجبال، والطبيعة، والأعشاب، والزهور، والأشجار. وكل ما وجد فيه شقير خطوة نحو المنفى باعتباره قد زرع في أعماقه صدمة ظلّت ترافقه في منفاه، كما أن المدن (مدينة العقبة في الجنوب، والبتراء، وعجلون) والعلاقات التي كونتها نواة المدينة كان لها حضور بارز في أدب الطفل الفلسطيني.

عطفا على الأمكنة الخارجية (المنفى) فإنّ ذاكرة الداخل أو الوطن بقيت راسخة وماثلة في خيال الطفل حيث يقول: «كنت أقف على قمّة الجبل، وأمامي على مدّ النظر: جبال فلسطين. أنظر نحوها وأراها كتلة واحدة ممتدّة، أقضي وقتا غير قليل وأنا أتخيّل أهلَ بلادي الذين يعيشون على قمم هذه الجبال وسفوحها» (32). لذا ظلّ عالم الشتات ذاكرة وواقعا من العوالم التي رسخت في مخيال الطفل مقترنة بالاوضاع التي تلتها، وهذه التجربة للطفل على قدر قساوتها كانت تثير تأملات أضافت لصورة المكان جمالية خاصة في أدب محمود شقير للطفل، وإذا كان لنا تقييم هذه التجربة، تجربة اللاجئ في وطنه فإنّها أقسى من تجربة المنفى في المنفى يتوافر لديك الإحساس بالانتظار، وبأن المأساة مؤقتة، فتشمّ رائحة الأمل، أما التجربة الاخرى، اللجوء في الوطن، فإنّه أمر غير مبرر وصعب الاستيعاب (33).

تنبغي الإشارة إلى أن مكان المنفى في أدب الطفل الفلسطيني رغم أنّه يمتّ بصلة بواقعية الحدث اليومي وتسجيله لبصريات الأمكان كجزء من الحياة سواء كان خارج الوطن أو داخله، إنّما هو إعادة تركيب وصياغة لتجربة مكانية تسعى لإعادة التوافق النفسي والوجداني لوجود الذات في مكان غير مكانها الأصلي، ومن ثمّ فإنّ المتخيّل عند إعادة تركيب هذه الأمكنة يسلّط الضوء على الأبعاد النفسية وصلاتها بالذات الإنساني، ومن ثم يعيد المفقود في الواقع عبر الصور ليعيده في المتخيّل، وهذا هو الفرق بين حياة المنفرد وحياة المتخيّل. «والفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلق وبين الفردوس المفقود بالمعنى الفلسطيني، هو خلق حالة الحنين والانتماء النفسي والشرعي من الصراع، ما دام الصراع قائما، فإنّ الفردوس لا يكون مفقودا بل يكون محتلّا وقابلا للاستعادة»(34).

2-4-4. القدس: ونحن نحاول البحث عن المكان في روايات شقير نجد أنّه أبرزه كي يحاول تثبيت الهوية الفلسطينية في مواجهة محاولات المحو التي يقوم بها العدو الصهيوني، ونجد القدس تحتلّ المكانة الأولى في رواياته، والهدف منها تقديم مدينة القدس للأطفال مع إبراز معالمها الإنسانية والدينية الإسلامية والمسيحية، واتخاذ موقف من الإحتلال الذي يعتدي على المقدسات فنجدها حاضرة في ذاته، إذ أن التجربة ممزوجة بالأنا: «لستُ بحاجة إلى بطاقة هوية. أنا صلاح الدين الأيوبي، والقدسُ هي مدينتي» (35). لكن السياق يمتدّ في حدوده ليحتوي كل معالم القدس داخل البلدة القديمة وعادات وتقاليد أهلها، والتجوّل بشوارعها وأسوارها وبيوتها وحاراتها، وأسواقها و...

تقوم البنية المكانية في القدس على متابعة تفاصيل ذات دلالة. فتجربة فقد المكان تجعل القاصّ يستعيد ملامح المكان، وبهذا يحقّق تفاعل المكان مع الذات وبذلك تصبح القدس تجسيدا للوجود الفلسطيني المتحقق في المكان. كما يتصاعد في الحبك الروائي جدل الداخل والخارج بين الذات في عزلتها عن عالمها

وواقعها الغريب عنها. فتصبح أمكنة مثل الشوارع، والأسواق، والبوابات، والمدينة القديمة، عتبات مكانية تعكس ما يحيل دون واقع الكاتب وحلمه: «ما أجملَ القدسَ في ساعات المساء! مصابيحُ الكهرباء تضيء المدينة، والبيوتُ تبدو متراصّة تعلوها قبابُ المساجد وصلبانُ الكنائس، وخارجَ سور المدينة تنتشرُ البناياتُ التي تشعّ من نوافذها الأضواء» (36).

بالاعتماد على هذا المرجع الديني يقترب شقير من النص الديني ومن المكان من خلال تحديده لقباب المساجد، وصلبان الكنائس، وسور الحديقة. ورغم أن هذا يسفر عن تجربة ذاتية "خروج القاصّ من القدس" فإنّ هذه التجربة كانت تثير أهمية ذاكرة المكان وإعادة صياغة المواقف من قضية الانفصال عنه. فالدلالات والإيحاءات في النص تشير إلى قداسة مدينة القدس من حيث صلتها بالموروث الديني الكامن فيها، إذ أن رموز القدس وقباب المساجد والأسوار والأضواء، تشير إلى مكانتها الدينية السامية، خاصة أن النور الإلهي هو الذي جعل هذه المدينة تشعّ بالأضواء، وهذه الأضواء ذات أصل ديني وترتبط بالعبادة، فالمجازات السردية تحمل دلالة انتاج فضاء مقدس بكل أبعاده وقيمه المرتبطة بالمكان، حيث يسيطر عليه الطابع الديني وما يحمله من ذاكرة دينية، المسجد الأقصى، كنيسة القيامة، باب العامود، قبة الصخرة، والمعالم الأخرى وهذا الحقل اللغوي يقوم على مرجعية دينية معبأة بمعاني: المقدس، والحزن، والفداء، فيقول مهند: «كنيسة القيامة ذات المبنى المهيب وفيها رسوْم شتّى للسيّد المسيح وهو يتحدّثُ إلى بسطاء الناس، أو وهو معلّقٌ على الصليب لكي يفتدي بآلامه جموعَ البشر». (37). وقال: «أنه على استعداد لأصطحابنا في جولة نتعرف خلالها على القدس ومقدّساتها» (38).

يربط النص بين العودة للقدس وفكرة التسامي بها إلى "مقدّسات" وهنا تتحوّل دلالة العودة من حركة أفقية إلى دلالة للصعود والتسامي والتي يتناغم الرمز الديني ومفهوم التسامي في إبداع فضاءاتها. ولا يفوت القاصّ محمود شقير أن

يلمح إلى أوجه الصراع بداية مشهد المسيح المعلّق على الصليب وحزنه الذي لا يفارقه لكي يفتدي بآلامه جموع البشر. وهذا يمثّل الصراع الواقعي على الأرض ويعبّر عن مفهوم العودة بأنّه مقدّس.

نتائج البحث

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع أدب الطفل ودور محمود شقير فيه، جدير بنا أن نصل إلى نتائج هذا البحث وأهم مخرجاته:

– يُعدّ محمود شقير من أبرز الكتاب الفلسطينيين الذين اهتموا بالأدب الطفلي من خلال رواياته ومسرحياته وقصصه القصيرة التي خصّصها للأطفال. وهو يسعى لبناء جيل جديد يدرك واقعه ويعرف ما يجري حوله، ليقاوم واقعه المظلم ويدفعه بوعي للتحرّر من ظلم العدو، ونشد الحرية، والعيش بكرامة إنسانية مثل بقية أطفال العالم. فلذا غلب الاتجاه الواقعي على نتاجه، فكان واقعيا اشتراكيا مخلصا لواقع شعبه الفلسطيني وهمومه وآماله وآلامه، مثابرا على تغييره لواقع أجمل وأفضل.

– عبّر محمود شقير في رواياته الثلاث"أنا وجمانة" و"كلام مريم" و"أحلام الفتى النحيل"، وبقية أعماله الأدبية، عن تصوير واقع للطفل الفلسطيني ومأساته، وبدأ منافحا مدافعا عن الحقّ الفلسطيني في الحرية والحياة. فلذا حرص على مظاهر الواقعية في بناء قصصه سواء كان ذلك في الشخصيات، أو المكان أو الأحداث، فحوّل مادّته الواقعية إلى نسيج جمالي. فيحظى المكان بمنزلة كبيرة لدى الكاتب المقدسي؛ إذ يستحوذ على ذهنه منذ لحظات التفكير الأولى في النص، ويزداد هذا الاستحواذ حين البدء بنسج أجزاء الرواية، ليحتلّ موقعا متمايز داخلها. فعليه تجري أحداثها، ووجوده ليس الهدف منه التعامل معه بطريقة جغرافية فقط، بل لابدّ من أن يتكامل مع عناصر الرواية الأخرى.

– يعدّ المكان أحد العناصر المكونة لبناء روايات محمود شقير، والمكان هو الفضاء الذي يتسع لباقي عناصر الرواية الأخرى، واختار شقير أماكن قصصه ماتتناسب

والمضامين الواردة في الروايات، ويتجلى ذلك في اختياراته لأماكن محتلة أو تتعرض للانتهاك والمداهمات، كالقدس وأحيائها، ورام الله وشوارعها، وجعل شخوصه يذرعون هذه الأماكن، موظفا ما ممكن أن ينالهم من الاحتلال من قتل أو اعتقال أو إعاقة في المرور، وهكذا بدت الأماكن والأزمنة تتكامل إلى ما أراد أن يبثه من مضامين.

– تعزز شقير حضور المكان في نفوس الأطفال الفلسطينيين، فلذا عني في أعماله القصصية عناةة فائقة بالأرض الفلسطينية والمكان الفلسطيني إدراكا منه أن المكان هو محور القضية الفلسطينية وجوهر الصراع فيها بين العرب والصهاينة. ولم تعد الأرض/ الوطن عنده مصدر خير وعطاء أو مكانا للمأوى أو جنة خضراء يتمتع المرء بجمالها، وإنما أصبحت كيانا حيّا يتفاعل مع الأحداث، ولذلك حاول الحلول والتوحد فيها، ولم يسع لإبراز البعد الجمالي للأرض الفلسطينية فحسب، بل سعى إلى التلاحم بها واكتساب القوة والصبر منها، فغدا هو والأرض وجهين لشيءٍ واحد.

– وينقسّم المكان في رواياته إلى المفتوح والمغلق؛ فلذا نرى في أعماله المكان الذي تلتقي فيه أنواع مختلفة من البشر ويزخر بأشكال متنوعة من الحركة، وهو مساحة مفتوحة لا تحدّها حدود ضيّقة كالأرض والسماء. فبينما نرى المكان الذي يحيل دون حرية نشاط الإنسان والتنقل من مكانٍ إلى آخر، كالسجن، والقيود.

– يصف شقير المكان وصفا دقيقا بكل تفاصيله، سواء أكانت البرية أم القرية أم مدينة؛ فيصف حظائر البرية وجبالها وحيواناتها ومضاربها، ويصف القرية وشوارعها، ويصف المدينة وحاراتها وأسواقها بواقعية. فلذا يلاحَظ أن الكاتب اختار أماكن رواياته بعناية ودقة سواء في البرية أو مشارف مدينة القدس؛ لقربه من المكان، وإلمامه بتفاصيل الحياة فيها.

– نجد القدس تحتلّ المكانة الأولى في رواياته، والقدس في رؤيته هي الفردوس المفقود الذي ظلت تتخيله وتحلم بالعودة إليه. فكانت القدس، سوق العطارين،

مشارف رام الله، سور المدينة، باب العمود، باب الساهرة، المسجد الأقصى، كنيسة القيامة، هي المسرح الذي يسيح فيها أبطاله. فنرى للمكان القدس الحضور الأبرز في تشكيل عناصر الوحدة والربط في رواياته، إلى جانب حضور الراوي والمؤلف النموذجي الذي يشكل رابطا أساسيا بين الشخصيات والأماكن. ولذلك يتكرر الكاتب أسماء الأماكن في البلدة القديمة لمدينة القدس، في سياق سردي جذاب، وهي لا تمر كمعلومات وإنما مندمجة بذاكرتها وبحضورها كأماكن أليفة، يرتبط بها أهلها، وتعاني معاناة مريرة.

- فالكاتب أكثر من استعمال الأفعال التي تضفي على المكان الحركة والحيوية والحياة، كما استخدم الوصف الذي يثري الرواية؛ ما يؤكد بأن الأشخاص وحركتهم لا يمكن أن تظهر بمعزل عن المكان الذي يرتبط بهما ارتباطا وثيقا.

الهوامش والمصادر

1. النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص315.
2. باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1957، ص31.
3. شقير، محمود، أحلام الفتى النحيل، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، 2010، ص84.
4. شقير، محمود، كلام مريم، الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل، رام الله، 2013، ص80.
5. شقير، محمود، أنا وجمانة، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2018، ص82.
6. ملاابراهيمي، عزت و منال فلاح، أدب الطفل الفلسطيني، جامعة طهران، إيران، 2019، ص65.
7. شقير: 2018، ص41.
8. شقير: 2013، ص24.
9. شقير: 2013، ص86.
10. العيد، يمني، فن الرواية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص115.

11. عودة زعرب، صبيحة، غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2006، ص٩٩.
12. شقير: 2018، ص9.
13. شقير: 2013، ص25.
14. شقير: 2013، ص25.
15. شقير: 2013، ص28.
16. شقير: 2013، ص24.
17. شقير: 2010، ص30.
18. شقير، محمود، نظرة على أدب الأطفال في فلسطين، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2019، ص1
19. شقير: 2013، ص33.
20. شقير: 2018، ص47.
21. شقير: 2013، ص5.
22. شقير: 2010، ص78.
23. شقير: 2013، ص32.
24. شقير: 2013، ص33.
25. شقير: 2018، ص16.
26. عقاق، قادة، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2015، ص٢٤٢.
27. سعيد، إدوارد، تأملات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2007، ص٤٠.
28. شقير: 2018، ص1.
29. شقير: 2018، ص1.
30. العامري، مُحَمَّد، المغني الجوّال دراسات في تجربة مُحَمَّد القيسي الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص١٢٥.
31. شقير: 2013، ص18.
32. شقير: 2013، ص18.
33. النقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، دار الهلال، القاهرة، 1972، ص111.

34. درويش، محمود، يوميات الحزن العادي، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2007، ص33.
35. شقير: 2018، ص18.
36. شقير: 2010، ص51.
37. شقير: 2010، ص13.
38. شقير: 2013، ص73.